الفصل العاشر
الطبيب العالم

«كان الطب معدومًا فأوجده أبقراط، وناقصًا فأتمه ابن سينا، ومشتتًا فجمعه الرازي».

الطبيب العالم (Physician Scientist) مصطلح جديد نسبيًّا في الأدبيات الغربية، ولكنه ليس كذلك في التراث الطبي العربي الإسلامي. التعريف الحديث (للطبيب العالم) أنه الطبيب النشط في الممارسة والبحث العلمي في آنٍ واحد، وعرفه آخر بأنه الطبيب الذي يجري عددًا مقدرًا من الأبحاث أو يجعل الأبحاث الطبية جزءًا من مهنته، ونجد تسميات عديدة لهذا الطبيب، فتارة يعرف بأنه الممارس السريري العالم (Clinician Scientist)، وتارة الأكاديمي الإكلينيكي (Clinical Academician)، وتارة أخرى ينعت حسب تخصصه؛ كالجراح العالم (Surgeon Scientist)، ويرمز إلى الطبيب العالم اختصارًا بـ (دكتوراه الطب ـ دكتوراه الفلسفة) (MD - PhD). ويعد بعضُهم الطبيبَ العالم مفهومًا حول الأبحاث التي يكون محورها المريض (Patient-oriented researcher)، وهو أيضًا ملمٌّ بعلوم الإحصاء الحيوي والسلوكات ومهتم بأبحاث الخدمات الصحية. بهذه التعريفات يمكننا القول إن غالبية أطباء المسلمين

الأوائل الذين تركوا وراءهم تراثًا طبيًّا عظيمًا كانوا أطباء علماء؛ لأنهم جمعوا بين الطب والعلوم ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بالممارسة الطبية.

يهدف مفهوم الطبيب العالم إلى إحلال العلم في الطب (Transforming science into medicine)، وإحالة الاختراقات العلمية المختبرية إلى تطبيقات سريرية، وترجمة العلوم الأساسية إلى اكتشافات في الممارسة السريرية، وهي الغاية من الأبحاث الأساسية في الخدمات الصحية. وقد أنشئ الاتحاد الأمريكي للأطباء العلماء(American Physician Scientist Association APSA) في العام 2003م، وذلك بهدف توفير فرص لتدريب الأطباء العلماء وتحسين مستقبلهم، وبقصد التفاعل بين أعضاء الاتحاد. ولا يظنن أحدٌ أننا نطلب أن يكون كل طبيب متفرغًا للبحث بجانب ممارسته، فهذا أمرٌ عسير، ولكن الذي نطلبه لكي نطلق صفة الطبيب العالم على أطبائنا هو أن يمتلكوا مهارات إجراء البحوث وكتابتها، ومقدرة قراءة أبحاث الآخرين بصورة ناقدة، وقد لا يكون الطبيب العالم الذي ندعو إليه أكاديميًّا، ولكنه يمتلك بعض القدرات الأكاديمية، فلا يلزم - مثلًا - أن يكون حاملًا لشهادة الدكتوراه، ولكنه يستطيع أن يحلل الأرقام في سجلات مرضاه، ويستنبط منها ما يُحَسِّن ممارسته السريرية. وبهذا الفهم فنحن نوسع ضيقًا في مفهوم الطبيب العالم، ولعل الاهتمام بهذا المفهوم ليس وليد العقود المتأخرة، فقد وقعت عيني على عنوان صريح تمنيت أن أحصل عليه ولكني لم أوفق، الكتاب لواتشلي دانا وعنوانه الطبيب: معالجًا وعالمًا، وترجمه إلى العربية زكريا فهمي، ونشرته دار الفكر العربي بمصر.

إن البحث العلمي يجعل الطبيب منتميًا لمجتمعه؛ لأنه يساعده على تحسين ممارسته اليومية، وأفضل تدريس الطب ما كان من نتائج أبحاث أساتذة الطب أنفسهم، وفي أيامنا هذه - وفي كثير من البلاد - لا يوظف طبيب إلا إذا نشر ورقة علمية واحدة على الأقل، ولا يرقى أستاذ جامعي طبيب في مرتبة أكاديمية أعلى إلا بعد نشر عدد معلوم من الأبحاث ذات العلاقة بتخصصه.

تدرب الجامعات طلبة الطب والأطباء في الدراسات العليا على مهارات الطب المبني على البرهان (Evidence based medicine)، هذه المهارات بحثية في معظمها؛ لأنها تتوقع من الطبيب أن يضع سؤالًا بحثيًّا ومن ثم يطلع على الأدبيات الطبية بصورة تحليلية ناقدة؛ ليستنبط منها الدليل أو البرهان فيجد الإجابة على سؤاله المتعلق بالمريض، مما يساعد على المعالجة المبنية على البرهان. لا يستطيع الطبيب أن يقرأ نتائج الأبحاث بصورة ناقدة حتى يكون متمكنًا من مهارات البحث العلمي، إلا فإنه سيقبل ويسلم بكل ما يقرؤه ومن ثم يطبقه. هذه المهارات لازمة؛ لأنه ليس بالضرورة أن كل ما ينشر من أبحاث يكون أصيلًا أو صحيحًا أو تستخدم فيه طرائق البحث الصحيحة، بل إن هناك أبحاثًا مزورة أو مغشوشة، ولا يستطيع قارئ هذه الأبحاث إدراك أنها مغشوشة إلا إذا كان ضليعًا في مهارات البحث العلمي، ونحن نسمع في كل عام أخبار الأبحاث المزورة، ولعلها أفظع فضيحة يمكن أن يكتسبها الطبيب بصنع يده.

تزداد الحاجة إلى أن يكون الطبيب عالمًا يومًا بعد يوم في عالمنا؛ فالأسئلة غير المجاب عنها كثيرة في الطب، ويجب ألا نفترض إتيان الإجابات من أساتذة الجامعات والباحثين الأكاديميين فحسب، فبقليل من الملاحظة

العلمية والمعرفة بطرق البحث يمكن لأي طبيب أن يحاول الإجابة عن الأسئلة الحائرة في الطب، وما أكثرها! ونحن نسمع كل عام أن جائزة نوبل في الطب منحت لأطباء علماء ليسوا بالضرورة أكاديميين. إن أهداف الأبحاث ومبرراتها كثيرة ومتعددة، وباستطاعة أي طبيب مدرب أن يحقق ما يتيسر له منها. لخص أحد الأقدمين مبررات البحث فقال: يكتب الباحث في:

- شيء لم يسبق إليه فيخترعه.
- شيء مغلق فيشرحه.
- شيء ناقص فيتممه.
- شيء طويل فيختصره.
- شيء متفرق فيجمعه.
- شيء مختلط فيرتبه.
- شيء أخطأ فيه مصنفه فيصححه.
- مخطوط فيحققه.

والطبيب المتميز هو الذي يسعى إلى تحقيق أحد هذه الأهداف أو بعضها.

صنع تراثنا الطبي العظيم أطباء علماء، وقد قيل: «كان الطب معدومًا فأوجده أبقراط، وناقصًا فأتمه ابن سينا، ومشتتًا فجمعه الرازي»، وشهادات الغرب للأطباء العلماء من العرب والمسلمين - على قلتها - تؤكد عظمة إسهامهم في الطب والعلوم، انظر ما يقول بريفولت في كتابه بناء الإنسانية: «ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا يمكن إرجاع أصولها

إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، وفي المصدر القوي لازدهاره؛ أي في العلوم التطبيقية وفي روح البحث العلمي»، ويقول في موضع آخر: «إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين لها بوجوده نفسه»[47]. وفي فضل العلم والعلماء تبارى الشعراء:

أرى العلمـاء أطـولنـا حياةً ... وإن أضحوا رفاتًا في القبور

أنـاسٌ غُيّبوا وهمو شهـودٌ ... بما ابتدعوه من علم خطـير

كأنهمُ حضـور حين تجري ... محاسن ذكرهم عند الحضور

لئن ملئت قبـورهمُ ظلامًا ... فإن ضياءهم ملء الصـدور

إن واقع البحث العلمي في بلادنا لا يرضي أحدًا، فأهميته غير مستشعرة بوصفه أولوية، والميزانيات المخصصة له ضعيفة، وليس مرتبطًا دائمًا بحل المشكلات القائمة. البحوث أغلبها حين تتم تتم في الجامعات ولترقية الأساتذة في السلم الأكاديمي، ولا يستفاد في أغلب الأحيان من نتائج البحث العلمي؛ لأن كثيرًا من الدراسات غير مصممة أساسًا ليتبعها عمل، وهذا يحجب عنها صفة العلم النافع. إنني أصبو إلى اليوم الذي لا يتخرج فيه طبيب إلا وقد تدرب تدريبًا جيدًا على مهارات البحث العلمي والتي أجملها في الآتي:

1. الاختيار الصحيح لموضوع البحث.
2. الاختيار الصحيح لنوع الدراسة.
3. مهارات مراجعة ادبيات البحث.

4. اختيار عينة البحث وحسابها.
5. استخدام الأدوات والطرق الصحيحة في إجراء البحث.
6. مهارات طرق تحليل نتائج البحث وأساليبه.
7. مهارات كتابة تقرير البحث (الكتابة العلمية).
8. معرفة محدودية نتائج البحث.
9. كتابة مراجع البحث بالصورة الصحيحة وحسب النظم العلمية العالمية.
10. مراعاة الجوانب الأخلاقية للبحوث.
11. معرفة متطلبات نشر البحث ومكان النشر.

تعد هذه المهارات من أهم مسؤوليات كليات الطب تجاه طلبتها، ومما يؤسف عليه أنه لم يُنتَبه إلى التدريب على هذه المهارات في كثير من جامعاتنا إلا مؤخرًا، علمًا أن البحث العلمي أصبح أحد المعايير المهمة للاعتماد الأكاديمي للجامعات وتصنيفها عالميًّا.

أتمنى ألا يجادل أحد في أهمية دعوتنا إلى أن يكون أطباؤنا علماء؛ ليس بالمعنى والمفهوم الوارد في بداية هذا الفصل، ولكن بالمفهوم العريض الذي فصلناه، وأتمنى أيضًا أن يعيد أطباؤنا سيرة الأجداد الأولين الذين كانوا أطباء علماء، والبحث العلمي هو السبيل الوحيد للنهوض بالأمة واللحاق بركب العصر وإلا فالتباكي على الأمجاد:

ملكنا هذه الدنيا قرونا ... وأخضعها جدودٌ خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء ... فما نسي الزمان ولا نسينا

وما فتئ الزمان يدور حتى ... مضى بالمجد قوم آخرونا

وآلمني وآلم كل حرٍّ ... سؤال الدهر أين المسلمونا